



يكتب المجتمع الدولي، أو لا يعرف الحقيقة، عندما يروج لمقوله إبقاء على مؤسسات النظام في سوريا ضمن التسوية السياسية المنشودة. ومع ترجيح الاحتمال الأول، إلا أن تفنيـد عـلاقـة نظام الأـسد بـالـدـولـة وـالـمـؤـسـسـات ضـرـورـة لأـجـلـ السـوـرـيـينـ أنـفـسـهـمـ أـلـأـ،ـ وـلـرـؤـيـةـ الشـكـلـ الـذـيـ أـجـهـزـ بـهـ تـامـاـ عـلـىـ مـفـهـومـ الـمـؤـسـسـةـ،ـ وـسـيـكـونـ ضـرـورـيـاـ تـبـصـرـهـ فـيـ أـيـةـ تـسـوـيـةـ مـقـبـلـةـ لـأـنـ إـبـقاءـ عـلـيـ لـغـمـ كـفـيلـ بـتـفـجـيرـهـاـ،ـ أـوـ بـتـعـطـيلـ مـشـرـوعـ الدـوـلـةـ كـكـلـ.

ثـمـةـ كـذـبـ قـدـيمـةـ لـنـظـامـ الأـسـدـ،ـ رـوـجـهاـ صـحـافـيـونـ وـبـاحـثـونـ أـجـانـبـ وـعـربـ،ـ فـضـلـاـ عـنـ النـظـامـ،ـ مـفـادـهـ أـنـ الأـسـدـ أـلـأـبـ نـقـلـ الـبـلـدـ مـنـ «ـالـشـرـعـيـةـ الـثـورـيـةـ»ـ إـلـىـ «ـالـشـرـعـيـةـ الـدـسـتـورـيـةـ»ـ،ـ خـلـاـفـاـ لـرـفـاقـهـ الـمـتـشـدـدـيـنـ الـذـيـنـ يـدـأـتـ تـسـتـهـوـيـهـ الـمـارـكـسـيـةـ وـالـمـاـوـيـةـ.ـ الـلـوـقـائـ الـمـبـكـرـةـ تـفـنـدـ هـذـاـ الزـعـمـ،ـ فـحـافـظـ الأـسـدـ الـذـيـ لـاـ تـسـتـهـوـيـهـ الـمـفـاهـيمـ الـثـورـيـةـ،ـ لـمـ يـقـتـنـ يـوـمـاـ بـمـشـرـوعـ الـدـوـلـةـ،ـ وـكـانـ لـافـتاـ فـيـ أـوـلـ حـكـومـةـ تـشـكـلـ بـعـدـ تـنـصـيـبـهـ رـئـيـسـاـ،ـ إـسـنـادـ حـقـيـقـيـةـ الـدـفـاعـ لـشـخـصـ لـمـ يـؤـدـ الخـدـمـةـ الـعـسـكـرـيـةـ،ـ وـكـانـ قـبـلـ الـانـقـلـابـ يـرـأـسـ اـتـحـادـ الـطـلـبـةـ.ـ ذـلـكـ فـيـ الـوـقـتـ الـذـيـ بـدـأـ نـجـمـ أـخـيـهـ رـفـعـتـ بـالـصـعـودـ السـرـعـيـعـ،ـ رـفـعـتـ الـذـيـ تـسـلـمـ قـيـادـةـ الـفـرـقـةـ 569ـ وـهـوـ فـيـ سـنـ الـثـلـاثـيـنـ،ـ وـأـشـرـفـ أـيـضـاـ عـلـىـ «ـسـرـايـاـ الـدـفـاعـ»ـ الـتـيـ ظـلـلـتـ تـعـرـفـ بـاسـمـهـ حـتـىـ حـلـهـاـ عـامـ 1984ـ.

جـيـدـرـ بـالـذـكـرـ أـنـ «ـسـرـايـاـ الـدـفـاعـ»ـ وـرـثـتـ مـهـامـ الـحـرـسـ الـثـورـيـ الـبـعـثـيـ،ـ لـكـنـ الـوـرـاثـةـ لـمـ تـأـتـ ضـمـنـ الـاـنـتـقـالـ إـلـىـ الـشـرـعـيـةـ الـدـسـتـورـيـةـ الـمـزـعـومـةـ،ـ لـقـدـ كـانـ الـأـمـرـ أـشـبـهـ بـتـشـكـيلـ إـقـطـاعـةـ عـسـكـرـيـةـ ذـاتـ اـمـتـيـازـاتـ خـاصـةـ،ـ وـبـالـطـبـعـ تـحـظـىـ بـاـسـتـقـالـلـيـةـ تـامـةـ وـإـنـ تـبـعـتـ شـكـلـيـاـ وـزـارـةـ الـدـفـاعـ.ـ فـيـ حـرـبـ تـشـرـينـ الـأـوـلـ (ـأـكـتوـبـرـ)ـ 1973ـ،ـ تـحـديـداـ فـيـ مـعـرـكـةـ مـرـصـدـ جـبـلـ الشـيـخـ،ـ سـيـصـعـدـ نـجـمـ «ـالـوـحدـاتـ الـخـاصـةـ»ـ بـقـيـادـةـ عـلـىـ حـيـدـرـ.ـ إـثـرـ الـحـرـبـ،ـ سـتـظـهـرـ نـتـائـجـ الـصـعـودـ بـتـطـوـيـبـ الـوـحدـاتـ الـخـاصـةـ إـقـطـاعـيـةـ عـسـكـرـيـةـ تـتـضـخـمـ مـعـ الـحـاجـةـ إـلـيـهاـ إـثـرـ دـخـولـ قـوـاتـ النـظـامـ إـلـىـ لـبـانـ.ـ حـيـنـهـاـ،ـ لـمـ يـكـنـ إـبـراهـيمـ الصـافـيـ،ـ قـائـدـ الـفـرـقـةـ الـأـوـلـىـ،ـ قـدـ بـرـزـ،ـ لـكـنـ إـقـطـاعـيـتـهـ «ـالـفـرـقـةـ الـأـوـلـىـ»ـ سـيـذـيـعـ صـيـتهاـ فـيـ مـاـ بـعـدـ بـارـتـكـابـ مـجـازـرـ فـيـ حـلـبـ وـحـمـاـ،ـ قـبـلـ أـنـ يـُعـيـنـ قـائـدـاـ عـامـاـ لـلـقـوـاتـ فـيـ لـبـانـ.

حـتـىـ 1980ـ،ـ لـمـ يـكـنـ السـوـرـيـوـنـ يـدـرـكـونـ جـيـدـاـ أـنـ مـؤـسـسـةـ الـجـيـشـ اـخـتـرـقـتـ عـمـلـيـاـ بـمـيـلـيـشـيـاتـ تـبـعـ نـظـرـيـاـ لـهـاـ،ـ وـلـمـنـاسـبـةـ الـمـواـجـهـةـ بـيـنـ النـظـامـ وـالـإـخـوـانـ سـتـظـهـرـ الـحـقـائـقـ.ـ «ـأـبـطـالـ»ـ تـلـكـ الـمـرـحـلـةـ كـانـواـ:ـ رـفـعـتـ الـأـسـدـ قـائـدـ «ـسـرـايـاـ الـدـفـاعـ»ـ،ـ عـدـنـانـ الـأـسـدـ قـائـدـ «ـسـرـايـاـ الـصـرـاعـ»ـ،ـ عـلـيـ حـيـدـرـ قـائـدـ «ـالـوـحدـاتـ الـخـاصـةـ»ـ،ـ شـفـيقـ فـيـاضـ قـائـدـ «ـالـفـرـقـةـ الـثـالـثـةـ»ـ،ـ إـبـراهـيمـ الصـافـيـ قـائـدـ «ـالـفـرـقـةـ الـأـوـلـىـ»ـ.ـ هـذـهـ كـانـتـ تـشـكـيلـاتـ النـخـبـةـ الـمـحـسـوـبـةـ نـظـرـيـاـ عـلـىـ الـجـيـشـ،ـ أـمـاـ مـواـزـنـاتـهـاـ وـتـحـرـكـاتـهـاـ وـأـوـامـرـهـاـ فـتـقـرـرـ بـمـعـزـلـ عـنـ وـزـارـةـ الـدـفـاعـ،ـ أـوـ مـنـ يـتـسـلـمـ مـنـصـبـ الـوـزـيـرـ،ـ وـكـانـ التـفـرـيقـ يـتـمـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ مـاـ تـبـقـيـ مـاـ يـسـمـىـ جـيـشـاـ بـوـصـفـ الـأـخـيـرـ

«جيش أبو شحّاطة»، نظراً إلى رثاثته وسوء حاله تسليحاً وتدريباً وصولاً إلى الهدم. عملياً، جيش «أبو شحّاطة» وحده الذي يخضع لوزارة الدفاع، ويخضع لفساد من نوع آخر أدنى.

على المقلب الأمني، سلّم أسماء موازية في تلك المواجهة، كاللواء محمد الخولي رئيس «المخابرات الجوية»، والعميد آنذاك محمد ناصيف رئيس جهاز «الأمن الداخلي» في دمشق، والعقيد آنذاك علي دوبا رئيس فرع «المخابرات العسكرية»، والمقدم بهجت سليمان ضابط مخابرات «سرايا الدفاع» الذي سيتولى في ما بعد عدداً من المناصب الأمنية قبل تعيينه سفيراً للنظام.

لقد صار واضحًا وقتها، أن البلد يخضع عمليًا لسيطرة مليشيات عسكرية وأمنية، ولاؤها المطلق للنظام، على قاعدة كونها إقطاعيات متآمرة ومتنافسة ضمن ما ترسمه العائلة «المالكة».

أصحاب الميليشيات الأمنية كانوا عموماً الأوفر حظاً في الاستمرار بعد قمع تلك الاحتجاجات، نظراً إلى كونهم لا يمتلكون قوات مقاتلة قد تهدد العائلة، ومشروع التوريث الذي بدأ يظهر جدياً منذ تطوع باسل الأسد في الجيش عام 1984، وهو العام الذي شهد أيضاً تحرك «سرايا الدفاع» التي يقودها عمّه رفعت، في محاولة وُصفت بالانقلاب الفاشل. كما هو معلوم، كانت تلك هي اللحظة التي أدرك فيها حافظ الأسد ضرورة التخلص سريعاً من قادة ميليشياته، تمهيداً للتوريث. لكن لم يكن بلا مغزى، إن لم نقل إن فيه كل المغزى، أن يعمد في تلك اللحظة نفسها إلى تشكيل ميليشيا جديدة تحت مسمى «الحرس الجمهوري»، وأن يعهد بقيادتها إلى عدنان مخلوف، نسيبه من جهة زوجته. أي أن فكرة حل الميليشيات التي قد تشكل خطراً على الوريث لم تكن وحدها لتطمئن بالأسد، هو الذي رسم نظامه على وجود ميليشيا حامية. وبينما سُرّح ضباط سرايا الدفاع المشهورون بولائهم لرفعت، وُنقل بعضهم إلى «جيش أبو شحاطة» كعقوبة وتجريد من الامتيازات، يُشاع أن عناصرها وصغار الرُّتب نُقلوا إلى ما سُيُّشْتَهِر لاحقاً باسم «الفرقة الرابعة» التي ستذهب قيادتها في ما بعد إلى ماهر الأسد، ويُقدر قوامها اليوم بـ15 ألف عنصر.

صناعة الميليشيات هي أفضل ما يوضح لنا اليوم سبب بروز أسماء جديدة قليلة وتنقلها بين جبهات المناطق التائرة.

سنرى مثلًا، قائدان مثل عصام زهر الدين وسهيل الحسن يتنقلان بين شمال البلاد وجنوبها، والسبب هو اقتصار قوات النظام المدرية وصاحبة الامتيازات على قوات النخبة، وضمن قوات النخبة نفسها تُمنح الحظوة للقادة الذين أثبتوا فضلاً عن ولائهم المطلق، قسوة مطلقة ضمن قواعد الاشتباك. ولئلا يذهب الظن بعيداً، فالملصود بالقسوة أيضاً ذلك الاستعداد المطلق للتضحية بالعناصر مقابل تحقيق النصر. على سبيل المثال، فقط قادة من هذا النوع لا يتورّعون عن دفع عناصرهم في حقل من الألغام، والتضحية بعدد كبير منهم لقاء تفجيرها واقتحام من يتحصّن خلفها.

بالطبع، للميليشيات العسكرية والأمنية سيطرة على الحياة العامة برمتها، ولقادتها باع مماثلة في تحقيق الثروات عبر طرق الفساد المعروفة، وعبر فرض أتاوات على نشاطات اقتصادية تقع في مجال سيطرتهم. احتكار الميليشيات العسكرية، عبر «الحرس الجمهوري» و «الفرقة الرابعة»، لصالح العائلة، كان صدأ على الصعيد الاقتصادي بروز ظاهري مخلوف وحمشو كواجهتين اقتصاديتين، والهيمنة من خلال مئات الشركات على النشاطات الاقتصادية ذات المردود المرتفع أو السريع.

عندما يُحكي عن النظام، فهذه قوته الفاعلة وهذا هو جوهر فلسفته في الحكم، ولنا بعدها أن نتخيل كيف ستكون مساهمة المنتظرة في التسوية.

الحياة اللندنية

المصادر: